الشباب والتجديد والاصلاح

بقلم الدكتور ابراهيم مدكور بك
أستاذ الفلسفة بكلية الآداب وعضو مجلس الشيوخ

لقد كتبت عن الشباب من قبل ، وسأكتب عنه اليوم ، ولا أظنني أتردد إن سنحت الفرصة في أن أكتب عنه غدا ، وأرجو ألا يكون في هذا إسراف ولا إملال ، فإن في حديثنا عنه ما يعزينا عن ماضينا ، ويسلينا في حاضرنا ، ويفتح أمامنا أبواب مستقبلنا . ومجلة " الشئون الاجتماعية " — وهي مجلة الأمل والمستقبل والاصلاح والتقدم — جديرة بأن تمنح الشباب قسطا كبيرا من عنايتها ، وتدرس مشاكله على اختلافها . هذا إلى أن موجة من اليأس والتشاؤم أخذت تجرى بيننا منذ زمن ، فتمكنت من كثيرين من شيوخنا ، ونفذت إلى بعض شبابنا ، ولا بد لنا أن نسد عليها الطريق إن كنا نريد نهوضا ونَنشد إصلاحا وتجديدا . وسلاحنا الأول في ذلك إنما هو الشباب بأمله الواسع وهمته العالية .

غفل الناس قديما عن الشباب وأثره في الفرد والمجتمع ، فلم يوضحوا مظاهره ولم يحللوا أعراضه ، وشغلوا بالرجولة والشيخوخة عن مراحل الحياة الأخرى . فلا نكاد نحظى عنه في التاريخ القديم والمتوسط بملاحظة تذكر ، اللهم إلا بتلك الصفحة الخالدة التي وضعها أرسطو في كتاب " الخطابة " المشهور ، والتي جاء فيها : " إن المرء في مرحلة شبابه أشجع منه في أية مرحلة أخرى من مراحل حياته . نفسه سامية لأنها لم تدنس بعد بمظاهر الحياة الانسانية أو لم تخضع لسلطان الحاجة ؛ وليس شيء أدعى إلى رفعة النفس من أن يعتقد الإنسان أنه أهل لعظائم الأمور . والشبان في إقدامهم وإحجامهم مدفوعون بعامل الخير والجمال ، بعامل المصلحة والمنفعة ، يسيرون في الحياة ورائدهم المثل العليا لا الغايات الحقيرة " .

ولم يخط الباحثون في التاريخ الحديث خطوة أفسح من هذه كثيرا . حقا إن بعض الأدباء والفلاسفة المحدثين — أمثال بيكون وبسكال ولاروشفوكو — عرضوا للشباب وأشاروا إلى بعض مظاهره الأخلاقية والنفسية ، ولكنها ملاحظات محدودة وإشارات جزئية لا يعتد بها . وأما روسو — في " اعترافاته " أو في كتابه " إميل " — فانه ، وإن عالج نفسية الطفل والشاب معا ، لم يدرسها دراسة علمية منظمة . وكان لا بد لنا أن ننتظر إلى أخريات القرن الماضي لنرى فيلسوفا وسيكلوجيا أمريكيا هو " استانلي هول " الذي وجه الدعوة إلى دراسة مظاهر الشباب الجسمية والعقلية والروحية ، ووضع في ذلك كتابه الكبير الذي يقع في نحو ألف وثلثمائة صفحة " Adolescence " .

وما إن دق هذا العالم ناقوس البحث حتى تابعه كثيرون وسار على نهجه أشخاص مختلفون . والأمريكيون بوجه خاص يعرفون كيف يضربون الرقم القياسي فى كل شيء ، إن فى العلم أو فى الصناعة، فأسست جمعيات وأنشئت مجلات ؛ وكل همها أن تجمع المعلومات عن الشباب فى حياته الجسمية والعقلية، الفردية والاجتماعية، وأن تدرس غرائزه واستعداداته وعواطفه ووجداناته . ولم تقف عند الشبان الأصحاء بل تعدتهم الى المرضى ، ولم تقنع بالعاديين منهم بل جاوزتهم إلى الممتازين . وتعددت وسائل الدراسة وتنوعت طرائق البحث فاستخدم المنهج الاحصائى ووجهت مئات الأسئلة لتوضيح ظاهرة من ظواهر الشباب ، واعتمد على المنهج التجريبى والأجهزة المختلفة لقياس القوى الفكرية والنمو الجسمى . ولم يغفل رجال المال والأعمال موضوع الشباب فى السوق الاقتصادية، وكان من نتائج ذلك قوانين تيلور المشهورة .

وقد صاحب هذه الحركة الواسعة النشيطة حركات أخرى تقرب منها فى انجلترا وفرنسا وألمانيا وسويسرا، ويكفى أن نشير الى جيمس سلى الانجليزى وألفرد بينيه الفرنسى واشترن الألمانى وكلاباريد السويسرى الذين يعدون أعلام الدراسة السيكلوجية فى عالم الطفل والشاب فى الخمسين سنة الأخيرة .

بيد أن مصر مع الأسف الشديد لم تأخذ بقسطها من هذه الدراسة إلا أخيرا ، وكانت التربية حتى عهد قريب لا تزال قائمة على تلك النظرية الخاطئة التى لا تفرق بين الطفل والشاب ولا بين الشاب والشيخ، كما كان التعليم مؤسسا على فكرة تزويد التلاميذ بطائفة من المعلومات سواء لاءمت أذهانهم أو لم تلائمها . ومنذ عشر سنوات تقريبا بدأنا فقط ننظر الى عالم الطفولة على أنه عالم مستقل ، وأخذنا ندرسه من بعض نواحيه . أما عالم الشباب فلم نتجه اليه بعد، ويظهر أن وزارة المعارف أحست هذا النقص فاستدعت أستاذا أجنبيا نجله ونقدره هو العلامة كلاباريد — الذى توفى أخيرا — ليدرس مشكلة المدارس الثانوية ؛ ولكن بحثه لم يأت بثمرة واضحة لامن الناحية النظرية ولا من الناحية العملية، وعدته وزارة المعارف سرا من أسرارها لم تشأ أن تذيع منه شيئا على الجمهور . والأمل معقود الآن على الجامعة ومعهد التربية فى تلافى هذا النقص وسد هذه الثغرة ، فيدرس الشباب المصرى دراسة مستفيضة كما درس الشباب الانجليزى والأمريكى .

*
* *

الشباب مرحلة ممتازة من مراحل العمر ، لها خصائصها الذاتية من نمو جسمى وتطور فكرى وروحى. وقد اختلف الباحثون فى تحديدها ، ففريق يرى أنها تبدأ فى الثامنة عشرة وتنتهى فى الخامسة والعشرين، وفريق آخر يضيق دائرتها ويحصرها بين الخامسة عشرة

والعشرين ، ولأبقراط فيها رأى قديم مشهور ، خلاصته أنها مرحلة من العمر تقع بين الرابعة عشرة والثامنة والعشرين. إلا أن الراجح اليوم أن فترة الشباب متغيرة من بيئة الى أخرى ومن جنس إلى آخر ، فهى فى البلاد الحارة مختلفة عنها فى البلاد الباردة ، وفى الإناث عنها فى الذكور . وربما كان أحسن تحديد لها عندنا أن نضعها بوجه عام بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين .

فى الشاب نواح عدة جديرة بالبحث والدراسة . فهناك نموه الجسمى وما يصحبه من غرائز مختلفة، وخاصة الغريزة الجنسية التى اعتبر الشباب من أجلها ميلادا ثانيا. وهناك عواطفه المتأججة من حب وبغض وغيرة وحمية، وفكره الحائر الذى يرغب فى الجدل والمناقشة، ويوغل فى البرهنة والاستدلال ليكشف الحقائق الجديدة التى تعترضه ، وإرادته التى تقوى حينا وتضعف حينا آخر ، وأخيرا علاقته بمن حوله وما تقتضيه هذه العلاقة من تكوين أندية ومجتمعات والانخراط فى سلك بعض الهيئات والجمعيات .

وإنا لندع جانبا كل هذه النواحى ونقصر كلامنا اليوم على نقطة واحدة، وهى استعداد الشباب للتجديد والإصلاح ، فنوضح هذا الاستعداد على ضوء التاريخ والواقع ، ثم نحاول أن نعلله تعليلا علميا أو نبين أثره فى الحياة الاجتماعية . فنحن إذن أمام ظاهرة سيكلوجية واجتماعية لا أظن أنها درست من قبل دراسة وافية، وكل ما نحظى به عنها إنما هو شذرات متفرقة فى كتب الأدب والفلسفة والتاريخ .

ولانزاع فى أن الشبان — بوجه عام — أسرع تقبلا للأفكار الجديدة وأرغب فى مناصرة النهوض والإصلاح ، فهم الدعاة الأول للمذاهب الحديثة ، وأعوان الأبطال والزعماء والمصلحين ، وفى الماضى والحاضر ما يؤيد ذلك تمام التأييد . فقديما التف شباب أثينا حول سقراط وتابعوه فى الأسواق والطرقات ، وعرض أفلاطون آراءه المختلفة ونظرياته المبتكرة على لسان خمسة عشر شابا تخيرهم أبطالا لمحاوراته ، وحوار يو عيسى وأنصار محمد ، عليهما السلام، فى أغلبهم شيبة وهبت نفوسها لله وإعلاء كلمة الدين . وحديثا نرى الثورات والحركات الاجتماعية على اختلافها إنما قامت على أعناق الشبان ، فشهداء الحرية فى مصر وأعوان الفاشستية فى ايطاليا ، وجنود الهتلرية فى ألمانيا فى غالبيتهم العظمى شبان وهبوا ارواحهم فداء للوطن .

وليس الأمر بمقصور على الرجال ، بل يشمل النساء أيضا . فالمرأة وإن تكن أقرب الى المحافظة، مجددة فى شبابها ومستعدة للأخذ بطريف الآراء وغريبها، وقد أثبت تطور الأزياء " والمودات " أخيرا أن الشابة ربما كانت أحيانا أرغب فى التجديد من الشاب . نعم إنه قد يكون بين الشبان محافظون ، إلا أنهم شواذ وقليلون ، وقد تمر على الشباب فترة ينفر فيها من الإصلاح ويمقت التجديد، ولكنها نفرة غير طبيعية يجب البحث عن أسبابها الخارجية.

هذه هي الظاهرة . وأما تعليلها فيرجع الى عوامل عدة ، أهمها أن في الشباب نشاطا جسميا متوفرا يتطلب منفذا وسبيلا يصرف فيها . وقد كان الطفل من قبل ينفق قواه الجسمية في حركات لا معنى لها ، ويوم أن يشب يتخير الغاية والغرض، فيشترك في الأندية والألعاب ليبذل قسطا من نشاطه، ويقبل على حركات التجديد والاصلاح التي تتطلب جهودا عظيمة وحيوية متوفرة، "وما التجديد في أبسط صوره إلا خروج على تحول العادة وكسل السجية".

وفي الشاب فوق هـذا وجدان حي وعواطف متأججة تملؤه حرارة وتدفعه الى الأمام ، وفي مقـدمة ذلك طائفة من العواطف السامية ، كالايثار والتضحية والثقة بالنفس ، التي تسوقه نحو التجديد وتدفعه الى كل عمل نبيل . فهو مؤثر لا أثر ، يحب الغير حبا خالصا ، وطاهر بريء لم يدنس بدنس الحياة بعد، والتجديد والاصلاح إنما يقوم في دعامته الأولى على الايثار وحب الغير . وهو بطل مضح يمنيه إعجاب الناس وتقديرهم له ، ولولا البطولة والتضحية ما أمكن الجهر برأي جديد ولا إعلان دعوة تخرج على المألوف . وهو أيضا مملوء ثقة بنفسه، فلا يأبه بصعوبة ولا يسلم بمستحيل، بل تأبى همته إلا أن تتخطى الصعاب وتتغلب على الشدائد .

ومما يدفع الشاب إلى الجديد ويحمله على اعتناقه خياله الخصب الذي لا يقف عند حد ولا يقنع بغاية . ولا نزاع في أن الشباب هو مرحلة الشعر والقصص والروايات والتمثيل والصور الزاهية والفنون الجميلة بوجه عام، ولا تكاد تعدله في ذلك مرحلة أخرى من مراحل العمر . ومن منا لم يقض في أيام شبابه ليلة أو ليالي في قراءة رواية أو تدوين رسالة أو قرض قصيدة سواء أعرف الشـعر أم لم يعرفه ، وأجاده أم لم يجده ؟ ومن منا لم يؤخذ بالطبيعة وجمالها فجلس اليها يناجيها ويتأمل فيها ؟ ومن منا لم يبن قصورا في أسبانيا — كما يقولون — ويرسم لنفسه صورا من الأمل الحلو والاحلام اللذيذة ؟ ذلك لأن مخيلة الشباب القوية في بغضها للواقع تبحث عن عالم آخر أفسح وأجمل تسبح فيه ، فاذا ما قدم لها مجدد أو مصلح نموذجا لهذا العالم المنشود طارت له فرحا واطمأنت اليه . والاختراعات النافعة والنظريات الصحيحة في أول أمرها خيال لم يلبث أن تحول الى حقيقة ثابتة .

وهنـاك عامل آخر فكري يدفع الشبان الى التجديد ويحفزهم إلى الاصلاح ، ألا وهو تعشقهم للمثل العليا وسيرهم وراءها وإن لم تتضح لديهم كل الاتضاح ولم تفهم تمـام الفهم . وليست حياة الشاب العقلية مجرد عواطف جامحة وخيال سابح ؛ بل فيهـا قسط من النظر والتأمل والبحث والتفكير، فهو يفكر في الآراء الجديدة ويدافع عما ارتضاه منها، وقد يغلو في دفاعه هذا الى حد الاستماتة والتعصب الأعمى، ويستمسك بأهداب بعض المثل العليا ويسير وراءها سيرا كله وفاء وإخلاص .

وأخيرا لا يكاد الطفل يشب حتى يشعر بطلاقة لم يألفها وحرية لا عهد له بها ؛ فيخرج من قيود الأسرة وسلطانها إلى بحبوحة المجتمع وسعته، ويرغب فى أن يقاسم فى هذا العالم الجديد الذى أصبح عضوا منه ، ويستطيب تلك الحرية التى لا تعرف الحدود والضوابط . ذلك لأنها حرية نقية صافيه لا تقبل المجاملة ولا تقر المواربة والمداهنة ، ولا ترضى عن الحلول الوسطى والآراء الملتوية . وما أحوج التجديد والاصلاح الى حرية من هذا اللون وصراحة من هذا الطراز !

فهذه العوامل مجتمعة جعلت " الشاب يعيش فى المستقبل فى حين أن الطفل يعيش فى الحاضر والشيخ فى الماضى " وما التجديد الا مستقبل نريد به أن يكون حاضرا ، وما الاصلاح إلا أمل بعيد نود أن نراه قريبا وخيال حلو نرغب فى أن نشاهده أمرا واقعا . فحين يدعى الشاب الى تجديد وإصلاح إنما يدعى الى عالمه ويسكن إلى البيئة التى تلائمه ، فهو مجدد بطبعه وميال الى التغيير والاصلاح بفطرته . ولعل من أسباب التوازن الاجتماعى أن نرى الشبان يقفزون وإلى جانبهم الشيوخ هادئين وادعين ، فنتحرك فى هدوء ونهدأ فى حركة ، وذلك هو السير النافع الرزين .

فمن الخير إذن أن تتوافر لدى الشبان تلك النزعة الاصلاحية ، وأن يمتلئوا رغبة فى النهوض والتجديد . وتطور الجماعات عامة يتوقف الى حد كبير على هذا الاستعداد الكريم . ولا نكاد نذكر نهضتنا الأخيرة حتى نذكر ما كان للشباب فيها من جهود وآثار حميدة ، فهو الذى لبى النداء لأول وهلة ، ورفع الصوت جهرة فى غير ما وجل معلنا كلمة الحق والأمة ، وأخذ يردد تلك الأنشودة العظيمة : " بالدماء تحرر الأوطان " و" نموت ويحيى الوطن " . وبذل روحه وجسمه فى سبيل وطنه وأمته ، فعذب منه فريق واعتقل آخر ، وجرح منه من جرح وأصيب من أصيب . وكم كان يبهر الناظر حماسه فى مظاهراته ، ونشاطه فى اجتماعاته ، وصدقه فى مختلف حركاته وسكناته . لا يعمل لغاية ولا يحسب حسابا لثواب أو مكافأة ، وإنما كان كل همه أن تسود كلمة الأمة ، وفى هذا الثواب الذى لا ثواب بعده والمكافأة التى لا تعدلها مكافأة . وقد كان مؤمنا كل الإيمان بمطلبه ، فلم يبال بفشل ولم تؤثر فى نفسه هزيمة ، كبير الأمل فى مستقبل مصر ، فلا يتهاون فى حقوقها ولا يرضى بغير الاستقلال التام بديلا ، وثابا يسير إلى الأمام دائما ، فلا يلتفت الى جماعة المحافظين والجامدين ولا يستمع الى دعاة التردد والخائفين .

ولكن يسوؤنى أن ألاحظ أن كثيرا من تلك النفوس الطاهرة قد تدنس ، وأن بعضا من تلك القلوب الخالصة قد فسد ، وبدأنا نشاهد فى السنوات الأخيرة عدوى الشيوخ تسير الى الشبان الأبرياء فأضحوا أنانيين منفعين يفكرون فقط فى أنفسهم ومستقبلهم ، وشغلوا كما شغل غيرهم بالغنائم واقتسامها ، والفرص واغتنامها ، والدرجات والحصول عليها ، وسرت بينهم موجة خبيثة

من الجمود والرجعية ، فبعد أن كانوا بالأمس أنصار الجديد أصبحوا اليوم خصومه ، و بعد أن كانت صدورهم تتسع لكل رأى أخذوا يضيقون ذرعا بكل فكرة لم يألفوها ، وفيهم يأس قاتل يتنافى مع هممهم العالية ، وخمول شامل لا يتفق ونموهم الجسمى ، واستهتار تتضاءل معه عظائم الأمور وجلائل الأعمال ، وقل أن يجدّوا فى مسألة عامة و يتفرغوا لها كما كان يصنع إخوانهم السابقون .

وكل تلك أعراض خطيرة تستلفت النظر وتتطلب العلاج السريع ، لأنا لازلنا من نهوضنا فى بدئه ومن إصلاحنا فى مقدمته ، ولا يمكن أن يكتمل هذا النهوض ولا أن يتم هذا الاصلاح إلا إذا عاونه الشبان وآمنوا به وأقبلوا عليه . وأغلب الظن أن هذه الأمراض التى أشرنا اليها ترجع فى قدر كبير منها إلى الحزبية العمياء التى انغمس بعض شباننا فيها فقضت فى نفوسهم على فضيلة الإخلاص للوطن والبر به والعمل على مرضاته ، وصيرتهم جنودا للأهواء والشهوات تميل بهم إلى حيث تميل . وفى هذا ما يهدم المثل العليا من أساسها ، ويقضى على المبادئ السامية كيفما كانت منزلتها . وكيف يعمل من لا مبدأ له أو يسعى من ليس أمامه مثل أعلى ينشده ؟

على أنا لم نقف فى هدمنا لهذه المبادئ وتلك المثل عند هذا الحد ، بل قامت خصوماتنا السياسية على تناحر وتطاحن أعمى يهدم الحق الصراح وينكر الأمور المسلمة ، فليس ثمت برنامج خال من النقد ولا عقيدة سليمة من التجريح ، لاننصف أنفسنا ولا ننصف خصومنا ، ندعى ما لم نفعل ونتقول على غيرنا ما لم يقل ، ولا نتفق على كثير من الوقائع التى حدثت بين ظهرانينا وعلى مرأى منا ومسمع ، فاضطربت الآراء وتبلبلت الأفكار . فقل لى بربك كيف يطمئن الشاب فى جو كهذا الى دعوة حق أو يستجيب لنداء واجب ، خصوصا وهو يشعر بشىء من اليأس وخيبة الأمل ، لأنه سمع الكثير من الوعود الخلابة والأمانى الحلوة التى تبخرت فى ساعة التنفيذ ولم يتحقق منها إلا النزر اليسير . وكثيرا ما عقد الآمال على تعاقب المنفذين وتوالى المصلحين ، فلا يجد نفسه قد خطا إلى الأمام خطوات واضحة . ويظهر من جهة أخرى أن آمالنا جميعا أكثر من أعمالنا ، نجلس جلسة القرفصاء دون حراك أو عمل ثم نتمنى على الله الأمانى ، واذا لم يتحقق شىء مما كنا نأمله شعرنا بخيبة بالغة .

فاذا كنا نعد الشباب للتجديد والاصلاح ، و إذا كنا نعوّل عليه فى النهوض والتقدم ، فلنقده فى هذا السبيل بحكمة ، ولنبرهن له عمليا على استمساكنا بالمبادئ التى ندعو اليها وحرصنا على التعاليم التى ننادى بها ، فليس شىء أدعى للقضاء على فكرة من أن يخرج عليها أنصارها ، وليس شىء أهون للدعاة والمصلحين من أن تناقض أفعالهم أقوالهم .

ابراهيم مدكور